

دروس من الحرب: دعوة إلى إعادة تقييم إستراتيجي في غرب آسيا



الخميس 7 مايو 2026 02:00 م

كتب: د] محمد جواد ظريف

د] محمد جواد ظريف

وزير خارجية إيران الأسبق ونائب سابق للرئيس الإيراني، وأستاذ مشارك في الدراسات العالمية بجامعة طهران ومؤسس ورئيس مركز باياب الفكري.

أعلن مجلس التعاون في بيانه الأخير أن "الهجمات الإيرانية أدت أيضا إلى فقدان حاد في ثقة دول المجلس بإيران، الأمر الذي يستلزم من إيران المبادرة ببذل جهود جادة لإعادة بناء الثقة".

وبينما تُعد إعادة بناء الثقة في منطقتنا هدفا ساميا وأساسيا، وبينما لطالما بادرت إيران في هذا الصدد، فإنه من الضروري أن تُقر جميع الأطراف بدورها في هذا الوضع المؤسف الراهن.

كان العدوان غير المبرر على إيران نتاج حسابات خاطئة وأخطاء فادحة] وقد استند ذلك إلى وهم مفاده أن إيران قد ضعفت، وبالتالي أصبحت غير قادرة على المقاومة والرد بقوة على هجوم هائل من قبل قوتين نوويتين، بمساعدة وتخفيف من قبل جهات فاعلة إقليمية.

أقنع صناع السياسات في واشنطن وتل أبيب، وفي بعض العواصم الإقليمية أنفسهم بأن حملة سريعة من الضغط الاقتصادي والتخريب والعمليات السرية وقطع الرؤوس وجرائم الحرب العشوائية يمكن أن تكسر الجمهورية الإسلامية، وتترك لها فرصة ضئيلة للرد] لقد كانوا مخطئين.

أظهر رد إيران، المتزن والحازم في الوقت نفسه، ليس فقط مرونتها العسكرية، بل أيضا قدرتها على الرد على نطاق تردد صداه إلى ما هو أبعد من المنطقة.

لقد كان لجيراننا العرب في المجلس نصيبهم الفادح في هذه الحسابات الخاطئة، وربما لعبت إيران دورا في تضليلهم.

على مدى خمسة عقود، وقفوا باستمرار على الجانب الخاطئ من التاريخ- حيث دعموا عدوان صدام حسين بل وساعدوا إسرائيل في اعتراض الصواريخ الإيرانية التي أُطلقت دفاعا عن النفس في أعقاب اغتيال إسرائيل زعيما عربيا في إيران.

وقد شجع بعضهم بنشاط الولايات المتحدة على اتخاذ عمل عسكري ضد إيران، بل وطالبوا الأخيرة بإضافة القوات البحرية الإيرانية إلى قائمة أهدافها.

وفي المقابل، سمحوا للولايات المتحدة باستخدام قواعدها داخل أراضيهم لشن ودعم العديد من أعمال العدوان وجرائم الحرب ضد إيران لوجيستيا] بل إنهم انتازوا علنا إلى جانب الولايات المتحدة عندما ارتكبت جرائم حرب ضد إيران، مما ذكر الإيرانيين بالأيام الحزينة التي انحاز فيها هؤلاء الإخوة والأخوات المسلمون إلى جانب صدام حسين عندما استخدم الأسلحة الكيميائية ضد المدنيين الأكراد الإيرانيين والعراقيين]

لقد لحقت أضرار بشرية ومالية جسيمة بالشعب الإيراني من خلال هذه الهجمات غير القانونية، التي تم شنّها ودعمها عمدا من أراضي الدول العربية المجاورة ذات السيادة.

حتى مع اتضاح، بشكل لا لبس فيه، أن الولايات المتحدة كانت تستعد لارتكاب جرائم حرب منهجية ضد السكان المدنيين في إيران- بما في ذلك الضربات على المناطق المأهولة بالسكان والبنية التحتية الحيوية- فقد أثبتت بالفعل عدم رغبتها في حظر أو حتى تقييد استخدام أراضيها ومجالها الجوي ومنشآتها العسكرية لارتكاب مثل هذه الجرائم الحربية ضد إخوانها وأخواتها المسلمين في إيران.

لقد تمنى بعض جيراننا العرب في المجلس خطأ أن تكون إيران إما عاجزة وغير قادرة على الرد، أو أنها ستستمر في غض الطرف عن تواطؤها في عدوان استهدف بشكل صريح سلامة أراضيها وحتى وجودها نفسه.

لقد ثبت أن هذا الوهم كان مجرد أمنية مأساوية، ولم يكن أمام إيران خيار آخر سوى الرد على مضمض- بطريقة محسوبة ومقيدة- على الهجمات التي تم شنّها أو دعمها لوجيستيّا من أراضي دول المجلس.

وللمضي قدما، من الضروري أن يتخلى جيراننا عن هذه التصورات المشوهة للماضي وتصريحاتهم الخاطئة عن كونهم ضحايا.

تواجه منطقتنا الآن لحظة انتقالية[] لقد كشف الصراع عن هشاشة الهياكل الأمنية المستوردة وقوة القوى المحلية وشبكات الأمن الإقليمية الدائمة.

بدلا من التمسك بتحالفات الأمس، سيكون من الحكمة أن يتوقف إخواننا وأخواتنا في المنطقة ويعيدوا تقييم الوضع[] تشير الدروس الصحيحة المستفادة من هذه الحلقة إلى مستقبل قائم على الاعتماد على الذات، والفاعلية الإقليمية، وشبكة أمنية شاملة.

أولا، إيران وجيرانها العرب باقون هنا[] لقد صمدت إيران في وجه العقوبات والإرهاب المدعوم من الخارج والحرب الهجينة وحتى عمليات قطع الرؤوس لما يقرب من خمسة عقود.

وقد أظهر شعبها، على الرغم من تنوعه، مرارا وتكرارا أنه سيتحد حول رأيته عند مواجهة أي تدخل أجنبي[] تمتلك طهران الوسائل اللازمة لمواجهة التهديدات الوجودية، وموقعها الجغرافي يمنحها نفوذا يمكن أن يفرض عواقب وخيمة على الأسواق العالمية إذا دُفعت أبعد مما ينبغي.

إن ممارسة إيران ضبط النفس لفترة طويلة للغاية خلقت انطبعا خاطئا بأن مضيق هرمز يمكن أن يكون مفتوحا للجميع بينما كانت إيران محرومة منه بشكل أساسي؛ بسبب العقوبات الأمريكية غير القانونية وغير الأخلاقية- والتي استفاد منها جيراننا بشكل كبير، حيث بنوا ثروتهم على البؤس غير القانوني المفروض على إخوانهم الإيرانيين.

والأهم من ذلك، أن قوة إيران ليست مستوردة أو مصنعة؛ بل هي قوة محلية المنشأ، متجذرة في متغيرات ثابتة: تاريخ يمتد لألف عام لدولة حضارية دائمة ومستمرة، وثقافة غنية ومتماسكة، وشعب شاب ومتعلم، وغريزة للبقاء صقلتها قرون من مقاومة الهيمنة الخارجية.

لا يمكن لأي قدر من الضغوط الخارجية أن يغير هذه الأسس[] أما الجيران الذين يواصلون المراهنة ضد هذا الواقع، فلا يلوموا إلا أنفسهم لتجاهلهم الجغرافيا والتاريخ والديموغرافيا.

ثانيا لقد ثبت أن "نموذج الأمن والتنمية" الذي اتبعته العديد من الدول العربية معيب للغاية[]

لسنوات، كانت المعادلة بسيطة: شراء الأمن من خلال الإنفاق ببذخ على شراء أنظمة الأسلحة الأمريكية الأكثر تطورا، واستضافة القواعد العسكرية الأمريكية - وحتى مراكز الاستخبارات والإرهاب الإسرائيلية - ودعوة الاستثمار الأجنبي تحت مظلة هذا الأمن المستورد.

لم يقدم هذا النموذج لا الأمن الحقيقي ولا الشعور بالاستقرار اللازمين لتحقيق نمو اقتصادي مستدام.

إن الاعتقاد بأن بعض العواصم العربية انحازت إلى جانب الولايات المتحدة وإسرائيل ضد دولة إسلامية شقيقة، أكسبها سمعة سيئة في جميع أنحاء العالم الإسلامي.

وقد تفاقمت تلك الأضرار التي لحقت بسمعتهم لاحقا بسبب الخطاب الفظ والمتعالي الذي وجهه الرئيس الأمريكي إليهم.

والآن، فإن التقارير التي تفيد بأن واشنطن تفكر في إجبار جيراننا على تحمل تكاليف حرب تُشن على حسابهم ولصالح إسرائيل، لا تؤكد إلا على السخرية الكامنة في صميم هذا الترتيب.

أكبر خطأ سيكون هو التمسك بهذا النموذج الفاشل بمجرد أن تصمت البنادق[] إن استمرار ربط الأمن القومي والمستقبل الاقتصادي بجهات خارجية تستخدم قواعدها كأرض انطلاق للعدوان على جيرانها وتعاملهم كعملاء مطيعين، هو وصفة للتبعية الدائمة والإذلال المتكرر.

ثالثا، لقد أنتجت الحرب حقائق سياسية وقانونية يحتاج جيراننا إلى الاعتراف بها[] إن وجود القواعد الأمريكية- التي انطلقت منها العدوانية "لإبادة الحضارة الإيرانية"، ودُعمت لوجيستيّا- لا يمكن اعتباره شراكة أمنية بريئة ومحايمة، بل تهديدا وجوديا لإيران- كما ثبت ذلك خلال الحربين الماضيتين، وحتى في الأعمال العدائية السابقة ضد إيران.

لم تُقم هذه القواعد هنا لحماية الدول المضيفة، بل لإلحاق الضرر بإيران حتى على حسابها[] إن الدول العربية التي لا تزال تستضيف مثل هذه المنشآت تُشارك بنشاط في عسكرة المنطقة، بما في ذلك مضيق هرمز، وهو ممر مائي حيوي لاقتصاداتها.

رابعاً إن تعميق الوجود الإسرائيلي في المنطقة لم يجلب سوى الصراع ولن يجلب سوى انعدام الأمن وتآكل استقلال الدولة.

لا تكتفي إسرائيل باحتلال الأرض فحسب، بل تتغلغل في الأنظمة السياسية عبر شبكات معقدة من جماعات الضغط واللوبيات، إنها تقوض السيادة من الداخل، محولة عملية صنع القرار الوطني إلى امتداد لمصالحها الخاصة.

لفهم هذا النمط، يكفي أن يدرس المرء كيف استطاعت لجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية (أيباك) السيطرة على مفاصل السلطة الرئيسية في واشنطن، أو كيف قامت منظمات مماثلة بتكرار النموذج في العواصم الأوروبية.

ما عليك سوى الانتباه إلى الأشمئزاز في الولايات المتحدة من الطريقة التي فرضت بها إسرائيل- التي لم تتخذ خطوة واحدة لمساعدة المتبرعين الأمريكيين- أهواءها على حساب دماء وأموال الأمريكيين.

الدول العربية التي سارعت إلى تطبيع العلاقات مع تل أبيب- أو ترغب في تكرار سلوكها- قد ضحت بالاستقلال طويل الأمد من أجل تحقيق مكاسب قصيرة الأجل.

يستحق سكان منطقتنا معاملة أفضل من أن يشاهدوا سياسات حكوماتهم الخارجية تُملى عليهم بشكل متزايد من بعيد، لا يمكن توقع أن يُعامل نظامٌ يبتز داعميه بنشاط، بما في ذلك من خلال ملفات إبتين، معاملة أفضل لأولئك الذين يرغبون في تفويض أمنهم إلى قبته الحديدية البالية.

خامساً، والأهم من ذلك، أن مبادرات إيران السابقة- مثل مبادرة هرمز للسلام (HOPE) ، وجمعية الحوار الإسلامي في غرب آسيا (مودة)، وشبكة الشرق الأوسط للبحوث والتقدم الذري (منارة)- قد أظهرت رغبة حقيقية في التواصل مع جيرانها لإقامة شبكات تعاون إقليمية شاملة.

إن تجاهل هذه المبادرات أو حتى رفضها، ظناً أن واشنطن ستوفر حماية مطلقة، كان خطأً تاريخياً فادحاً يمكن الحل في تصحيح أخطاء الماضي وتبني نظام شبكات أمنية محلية حقيقية، متجذرة في المصالح المشتركة.

تتمتع منطقة غرب آسيا بثروات هائلة، وموارد طاقة وفيرة، وثقافات قديمة وعريقة، ودين مشترك، وتاريخ متشابك يمتد لقرون.

ينبغي استغلال هذه الموارد لبناء شبكة إقليمية جديدة قادرة على مواجهة التحديات المشتركة- من ندرة المياه وتغير المناخ إلى التنوع الاقتصادي والتقدم التكنولوجي- دون وصاية خارجية، لم يعد بناء بنية شبكة أمنية من قبل المنطقة ولأجلها مجرد شعار طوباوي، بل أصبح ضرورة إستراتيجية.

لقد أنهت الحرب عهد الأوهام المريحة، بات من الواضح أن الأمن لا يمكن شراؤه أو الاستعانة بمصادر خارجية لتوفيره ولا يمكن تحقيق الأمن على حساب انعدام الأمن والتهديدات ضد إيران.

في ظل هذه الحرب، لا يمكن تجاهل الحقائق، ولا يمكن التستر على مظالم إيران، الأجانب هنا لا يفعلون سوى الاستغلال، وسيرحلون حالما تفوق الخسائر الفوائد، لكننا مقدر لنا أن نعيش معا حتى يوم القيامة.

لقد أثبتت إيران أنها لا تُفهر بآلات الحرب التي تمتلكها أكبر القوى الشريرة، بل إنها تتوق للعيش بسلام مع إخوانها وأخواتها المسلمين في المنطقة.

والسؤال الحقيقي هو: هل ستتحلى بقية دول غرب آسيا بالحكمة الكافية للتكيف مع هذه الحقيقة الراسخة؟ فلنغتنم جميعاً هذه اللحظة لبناء مستقبل قائم على الاحترام والكرامة والأمن والازدهار المتبادل.